– محمد ﷺ والشعر

إن النظرة الموضوعية والمتجردة من الميل العاطفي وضوابط الانتماء للكشف عن العلاقة بين الرسول ﷺ والشعر تقتضي أن نتوقف في البدء عند مصدرين هامين.

الأول:- إن الثقافة العربية التي كانت سائدة أيام ولادة الرسول محمد ﷺ ونشأته كانت تقوم في أغلبها على الشعر. ومن هنا يمكننا أن نقف على معاني العبارة الشهيرة التي تقول بأن "الشعر ديوان العرب". فلقد غدا الشعر آنذاك ، كما يقول ابن قتيبة : " ... معدن علم العرب ، وسفر حكمتها ، ومستودع أيامها ، والسور المضروب على مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل يوم النفار ، والحجة القاطعة عند الخصام ، ومن لم يقم عندهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة ، والفعال الحميدة ، بيتٌ منه شذَّت مساعيه ، وإن كانت مشهورة ، ودرست على مرور الأيام ، وإن كانت جساماً ، ومن قيَّدها بقوافي الشعر ، وأوثقها بأوزانه ، وأشهرها بالبيت النادر ، والمثل السائر ، والمعنى اللطيف ، أخلدها الدهر ، وأخلصها من الجحد ، ودفع عنها كيد العدو ، وغض عين الحسود ". وبهذا فإن الشعر العربي هو تسجيل حيٌّ غير منقطع لعادات العرب ولغتهم العريقة وطبيعة علاقاتهم الاجتماعية وأوضاعهم المعاشية وأحاسيسهم ومشاعرهم ورؤاهم وتاريخهم بأحداثه الغنية والمتنوعة.

ثانياً:- كان الشعر أيضا مجالاً للمنافسة والسباقات. وتشير المصادر إلى أن الرسول ﷺ كان يحضر أسواق عكاظ ولقاءات الشعراء المتنافسين هناك للاستماع إلى أشعارهم ومطارحاتهم, وهذا هو المصدر الثاني في اقتراب الرسول ﷺ من الشعر.

ولا شك في أن هذه الصلة بهذين المصدرين قد زودته بموهبة التذوق والإحساس بجمال الشعر وتأثيره وبإمكاناته الكبيرة في إيصال المشاعر والأفكار والرؤى إلى المتلقي. ولدينا بعض الروايات عن أن الرسول ﷺ قد حضر حين كان شاباً بعض خطب قس بن ساعدة. ويقول الرسول محمد أنه يعرفه ، وأنه رآه يخطب في عكاظ راكباً جملاً أورق وروى عنه بعض القول " وتأكيدا لمكانة قس بن ساعدة في نفس الرسول فإنه بقي عالقا في ذاكرته حتى وهو في أوج انتصاراته وتحدث عنه عندما استقبل وفد قومه إياد في العام التاسع للهجرة ، من هنا يتأكد لدينا انتباه الرسول ﷺ على قوة البيان والبلاغة والخطابة في إيصال المراد من القول إلى الآخرين وحتى أسلوب الخطابة والإلقاء. ويبدو لي أن الأهم هنا هو المضامين الفكرية والعقائدية التي انطوت عليها خطب قس بن ساعدة بما فيها كن توحيد وتنبيه وزجر وتوعية، تلك المضامين التي كانت تقف وراء اهتمام الرسول ﷺ بأقوال وخطب قس أكثر من اهتمامه ببلاغته وفصاحته.

ولعل فيما تقدم نجد بين السطور ما يشير إلى أن الرسول ﷺ لم يتنبه على جمال وأهمية الشعر والخطابة وأهميتها وحسب ، بل لعله تأثر أيضا بالخطباء أنفسهم وهم يلقون خطبهم أو قصائدهم فترسخت لديه الرغبة في التأثير في الآخرين خطيباً أو متكلماً بعد

أن أدرك سر الخطابة وتأثيرها في المستمعين إذا توفرت لدى الخطيب أو الشاعر القدرة على الإلقاء السليم والمتمكن.

ولا يفوتنا في هذا الصدد التذكير بأن الرسول ﷺ كان قد تربى في طفولته على يد جده عبد الطلب الذي كان هو الآخر قائداً وأحد أهم شخصيات الجزيرة العربية وخطيباً مفوهاً. وكان الرسول ﷺ يلاحظ بدقة ويتابع تميز شخصية جده القيادية لاسيما الجانب الخطابي منها. فهو الذي يقود القوم في دعاء الاستسقاء ، وهو الذي يواجه أبرهة الحبشة الذي جاء لهدم الكعبة( ).

كل هذا أسهم في أن ترسخت لدى النبي ص الروح القيادية والرغبة في التأثير. وتوجت الروح الوثابة هذه بتلقيه الوحي وتحمله الرسالة التي استمدت تعاليمها من القرآن الكريم والتي يتوجب عليه ص نشرها وإيصالها الى الناس كافة كما أمره الله تعالى. ولكي يؤدي ﷺ الرسالة كان عليه ، عدا عن البلاغة العالية للنص القرآني ، أن يستخدم ، فيما بعد ، كل الأسلحة والقدرات التي يمتلكها ومنها سلاح الشعر. وهو يعلم أن الشعر ثقافة القوم ، وطريق الداعية إلى عقولهم وقلوبهم وصار لهم " جبلة فطروا عليها ، سجية متأصلة ، يولد معهم ويعيش في داخلهم ويجري على ألسنتهم ". حتى أنه ينسب إليه ﷺ قول " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين ". وفي الحقيقة فإن ابن قتيبة يخصص كثيراً من جهده العلمي لهذا الشأن. ففي كتاب له آخر ضخم ومعروف : كتاب المعاني الكبير يسجل تراث العرب الثقافي والعلمي والاجتماعي في ما اختار وصنَّف من أشعارهم. فيكفي أن نلقي نظرة على مواضيع الكتاب كي نتمكن من التأكد مما نقول :

كتاب الفرس ستة وأربعون باباً ، كتاب الإبل ستة عشر بابا ، كتاب الحرب عشرة أبواب ، كتاب القدور عشرون بابا ، كتاب الديار عشرة أبواب ، كتاب الرياح واحد وثلاثون بابا ، كتاب السباع والوحوش سبعة عشر بابا ، كتاب الهوام أربعة عشر بابا ، كتاب الأيمان والدواهي سبعة أبواب ، كتاب النساء والغزل ، وكتاب الشيب والكبر ثمانية أبواب ، كتاب تصحيف العلماء باب واحد . وبالرغم من أن بعض أجزاء الكتاب لم تصلنا لكنه يبقى شاهدا على أن الشعر مستودع هائل لتاريخ العرب وتراثهم متعدد الجوانب.

من هنا فصاعدا يواصل هذا البحث الكشف عن أعماق الصلة بين الرسول ﷺ والشعر من حيث معرفته به وموقفه منه ومن تنوع أغراضه وقدراته على توجيهه وتصويبه ومن الشعراء وعلاقته الشخصية بهم ودفعهم الى كيفية استخدام الشعر على الوجه الذي يكون معه فاعلا مؤثرا لكنه أيضا نزيهاً طاهراً من الشوائب التي علقت بالكثير منه فيما سبق.

- الرسول ﷺ ليس بشاعر:

حين صدع الرسول ﷺ بما يؤمر وبالآيات القرآنية الكريمة كان أول رد فعل لقريش أنهم اتهموه بشتى التهم وفي مقدمتها أنه شاعر. وقد سجل القرآن الكريم هذه التهم وردَّها.

- " وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين" (سورة يس 69 – 70). " ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين " (سورة الصافات 36 – 37).
ويتصاعد الرد القرآني ليكون أكثر حسما وتحديا لاتهامات فريش: " فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون " (سورة الحاقة 39–40).

لكن هناك دلالات عميقة وذكية تكمن وراء هذا الجدل العميق، أشرنا إلى بعضها آنفاً. فأصحاب قريش أذكياء ومن الفطنة ما يكفيهم للتفرقة بين القرآن الكريم والشعر. فمن " المعروف أن عتبة بن ربيعة لم يسلم ومات كافراً بسيف الحارث بن عبيدة في غزوة بدر ، ولكنه كان قد أعجب إعجاباً شديداً بالقرآن الكريم حين سمعه من الرسول وقال أنه ليس بالشعر وأن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وأنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول بشر ". ويرى فينسنتي كانتارينو أن " نتيجة رأيه (هذا) في القرآن ، الذي أثر تأثيرا إيجابيا في الكثير من قريش ، أدت إلى قبولهم الإسلام بعد ذلك"( ). إلا أنهم أرادوا أن يضربوا الرسالة المحمدية في صميم تكوينها وتفكيك مفاصل تركيبتها العقائدية المحكمة. ففي الثقافة السائدة لدى الجميع آنذاك أن وراء الشعر تقف قوى روحية مثل الجن والشياطين. ولعل من

فنون الصراع الفكري كما خبرته البشرية منذ القدم أن يستهدف الخصم في أعماق عقيدته. فإذا ما استقامت لهم تهمتهم في أن الرسول ﷺ شاعر ، فستضرب في الصميم نظرية الوحي ، وبالتالي (وقصة الوحي معقدة وطويلة توقف عندها كتّاب ومفكرون كثيرون) ، من هو وراء الوحي، ونقصد الله سبحانه وتعالى ، فيعود الرسول ﷺ شاعرا عاديا لا يقوى على التأثير في المجتمع ناهيك عن قيادة عملية التغيير الكبرى التي جاء بها. وفي هذا المغزى ذاته (الصراع الفكري) ينبغي فهم الردود القرآنية على التهم ودفع فرية الشعر عن الآيات والشاعرية عن الرسول ﷺ.

ولا أعتقد أن تأكيد القرآن الكريم أمِّيَّة محمد ﷺ جاءت دفعاً للاتهام بأنه قرأ الكتب السماوية ونسج على غرارها حين يقول سبحانه وتعالى: " وما كنت تتلومن قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون" (العنكبوت 48). كما تذكر بنت الشاطئ . ويؤيد كلامها الأستاذ سامي العاني. ذلك لأننا لا نملك الأدلة على أن شعراء عصر ما قبل الإسلام أو المخضرمين منهم كانوا يجيدون القراءة والكتابة ، بل ينبغي ألا نستبعد أن بعضا منهم كان أميَاً. ثم أن الاطلاع على الكتب السماوية لا يحتاج إلى إتقان القراءة والكتابة لأنها كانت منتشرة ومتناقلة بين الناس أو في الأقل بين النخب الاجتماعية, فالناس كانت تتداول تعاليم التوراة والإنجيل وقصصهما دونما الحاجة الماسة لمعرفة القراءة والكتابة. لكن الآية تشير إلى أنه ص ما كان يقرأ الكتب السماوية لغرض أن يقلدها، ولم يكن يخط القرآن بيده ، أي أنه ليس من

تأليفه ، الأمر الذي سيثير شكوك المبطلين. والدليل أنه ص اتخذ عدداً من الصحابة والمسلمين الأوائل يملي عليهم ما يتلقاه من الوحي ، منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب (رضي الله عنهم) ، فيكتبونه ثم ينشر روايةً أو مكتوباً. ومن هنا جاءت تسمية كتبة الوحي. وبالتالي لا مجال للتشكيك في أمية محمد ﷺ فلقد أكدها القرآن في آية أخرى عندما يقول:" الآية ". كما أكدته الأحداث اللاحقة مثل كتاب عقد الصلح بين المسلمين وعلى رأسهم محمد ﷺ وممثل قريش في ما سمي بصلح الحديبية وكانت قريش قد بعثت بسهيل بن عمرو أحد كبار خطبائها ووجوهها المعروفين ممثلا عنها في المفاوضات مع الرسول ﷺ وأصحابه ويومها استدعى النبي علي ابن ابي طالب وأملى عليه بنود المعاهدة ولم يكتبها هو بيده.

- الرسول ﷺ لا يحفظ الشعر:

صحيح أن الرسول ﷺ كان قد ترعرع في الأوساط اللغوية والأدبية كما اشرنا آنفاً ولابد من أنه جراء ذلك قد اتصل بالشعر العربي وقد حفظ منه غير قليل أو في الأقل بقي في ذاكرته ما يعجبه منه وما كان قد احتاج إليه في سيرته الشريفة لاحقاً للاستشهاد به عند الضرورة. لكنه كما وصلتنا الأخبار لم يكن يستشهد بكل البيت الذي يريد ذكره بل يشير إليه إشارةً بعيدة أو يذكر مطلعه فقط أو يذكر اسم قائله ثم يتولى عنه أحد أصحابه الآخرين تكملة البيت. ولعل في هذا إصراراً يقصد منه تأكيد أنه لم يكن شاعراً وما ينبغي له أن يكون.

وكان ص يتمثل بأنصاف الأبيات كما فعل مع بيت لبيد بن ربيعة حين قال: إن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :" ألا كل شيء ما خلا الله باطل " ، فأتى بالشطر صحيحا وسكت عن إكمال البيت"( ). أو أنه ص يتمثل ببيت شعر فلا يقيم وزنه كما فعل مع بيت لطرفة بن العبد " ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود " وقيل أنه ص قاله : " ويأتيك من لم يزودك بالأخبار". والصحيح: "ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ ". وكذلك فعل مع بيت للعباس بن مرداس إذ رواه: "أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة" والصحيح هو: "بين عيينة والأقرعِ". وحين أراد أبو بكر تصحيح القول للرسول قائلا: ما هكذا يا رسول الله تذكر الآية الكريمة : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " فامتنع وتوقف. ويقول أبو هريرة " فلم يبلغني أنه أنشد بيتا على وزنه ، انما كان ينشد الصدر او العجز فإن أنشده تاما لم يقمه على وزنه" .

على أننا لا نعدم أن نجد روايات أخرى تشير إلى أن الرسول نفسه قد قال شعراُ ينسبونه له: كان يقول يوم حنين: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. وقد ردده الداعية المصري المعروف الشيخ محمد متولي الشعراوي في إحدى خطبه الدينية. وغير هذه الرواية يقال أن الرسول ﷺ في أثناء دخوله الغار عند الهجرة أصابت الحجارة أصبعه فدميت فقال:

ما أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

أن هذين البيتين يخلوان من سلامة الوزن بل هما من المنثور الذي يوافق المنظوم كما تنبه على ذلك ابن عبد ربة معقباً: أن مثل هذا

الكلام في الناس كثير. وبالتالي فهما ليسا شعرا. وهناك من يذكر أن الرسول ﷺ كان يردد أبياتا لعبد الله بن رواحة في غزوة الأحزاب:

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فأَنْزِلَنْ سَكِينةً علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إنَّ الأعداءَ قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

لكن تنسب إلى الرسول ﷺ وسيرته الكريمة بعض الأحاديث والمواقف التي من المفيد الوقوف عندها لاستبيان الصورة كاملة بشأن موقفه من الشعر. من هذه الأحاديث أنه ﷺ قال: (لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً). وقد يبدو للبعض أن هذا الحديث منسوب إلى الرسول من قبيل الانتحال لأنه كما ، قد يظهر، يتناقض من حيث الجوهر مع الآيات القرآنية المذكورة آنفاُ بالرغم من أننا نجد في كتب الصحاح تعليلاً لهذا الحديث والظرف الذي قيل فيه رداً " على شاعر عرض للرسول ﷺ وأساء له , فقال الحديث. ويقال أن السيدة عائشة ذكرت الحديث بتكملته التي لم ينقلها أبو هريرة فأضافت عبارة : " قيل في هجائي " إلى الحديث ليغدو :(لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا قيل في هجائي) وإذا منحنا هذا الحديث ثقتنا فلا قيمة للشك في صحة نسبة التكملة للسيدة أم المؤمنين والظن أن بعض المؤرخين قد أضافوا هذه العبارة كي يبعدوا الإساءة للشعر عن الرسول ﷺ ونسبوا الكلام للسيدة عائشة لتمتين الثقة في الكلام.

ويبدو موقف الرسول ﷺ من امرئ القيس ،الشاعر العربي الفحل ، أكثر وضوحاً حين يقول في أمره بأنه :" أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار ". والحديث الشريف هذا يبدو أكثر مصداقية وتناسباً لما كان يبشر به الإسلام من أخلاق ومبادئ. فأمرؤ القيس شاعر كبير واسع الآفاق عميق الرؤيا غني التجربة الشعورية ذو ملكة لغوية كبيرة وصاحب اشهر المعلقات الخالدات إلى يومنا هذا , وربما ستبقى ، شأنها شأن النصوص الخالدة الكبرى في ثقافات شعوب العالم الأخرى. وبهذا استحق فعلاً أمرؤ القيس أن يسمى أشعر الشعراء. لكنه أيضا شاعر مبالغ في غزله ، ليصل حد المجون ، وفي لهوه ومساعيه الدنيوية ورغباته ونزواته. فهو بهذا سيقود الشعراء، من شاكلته، إلى النار.

ونحن إذ نمنح هذا الحديث الثقة نرى فيه أيضا رؤيا نقدية استند فيها الرسول ﷺ على ثقافة لغوية وأدبية كبيرة تمرس عليها في تربيته العربية بين بني قومه ومجالسهم المتنوعة ، وبمعية جده عبد المطلب ، قائد الأحناف قبيل الإسلام، ناهيك عما تركه فيه القرآن الكريم من ملكات لغوية وثقافة أدبية هائلة ، وهو صاحب أفصح حديث وأشمل فكر. لكننا نرى أيضا أن هذا ينتمي إلى مجموعة المواقف النقدية الإسلامية التي شطرت الشعر العربي آنذاك إلى شطرين: إسلامي ومشرك , وأسهمت في وضع الأسس النقدية والفكرية له. ولتأكيد موقفنا هذا نشير إلى أحاديث نبوية شريفة ذكرت في أكثر من مصدر موثوق:

1- قوله ﷺ : " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة "( ).

2- قوله ﷺ : " إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق فهو حسن وما لم يوافق الحق فلا

خير فيه"( ) .

3- قوله ﷺ عن شعرائه الثلاثة : " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل".

4- قوله ﷺ لأحد شعراء المسلمين :" اهجهم فوالله هجاؤك أشد عليهم من وقع الظلام في غلس الليل".

5- قوله ﷺ :" إنما الشعر كلام , ومن الكلام طيب وخبيث ".

6- ويروى حديث آخر بهذا المعنى : " الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبحه كقبيح الكلام"( ).

وتدعم هذا الأحاديث الآيات الكريمات :" (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (24) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (25) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (26) .(من سورة إبراهيم). مما يجعلنا أكثر اطمئناناً لصحة نسبة هذه الأحاديث للرسول (ص) لما فيها من تطابق في الرؤى والشروط.